Mona ☺

المحاضرة الأولى (علم الاجتماع الصناعي نشأته وتطوره)

مقدمة

- يعتبر علم الاجتماع الصناعي من حدث فروع علم الاجتماع
- ارتبطت نشأته بتجربة الهاوثورن
- تم الكشف خلالها عن أهميّة العلاقات الاجتماعيّة في الصناعة
- تمّ الانتباه لأول مرّة أن المصنع ليس مجرّد وحدة انتاجيّة تؤدي وظيفة اقتصاديّة فحسب، بل هو مجتمع متكامل يعيش فيه الفراد، ل تدفعهم إلى العمل مجرّد الحوافز الماديّة أو الظروف الفيزقيّة الملائمة، إنما تحركهم العلاقات والروابط الاجتماعيّة التي تنشا بينهم.
- بينت التجربة أن العاملين في الصناعة يتصرفون كأعضاء في جماعات لها معاييرها ونظمها الخاصة.

أولا: العوامل الممهدة لظهور علم الاجتماع الصناعي

يمكن تحديد تلك العوامل:

١- الرغبة في ايجاد الحلول العلمية للمشكلات الاجتماعية في الصناعة: منذ أن حدثت الثورة الصناعية اتجه أصحاب المصانع الى الاهتمام بالآلات اللازمة للصناعة أكثر من اهتمامهم بتهيئة الظروف النفسية والاجتماعية للعاملين في الصناعة.

اتجه أصحاب المصانع الى تشغيل النساء والاطفال لان منافستهم للرجال كانت تؤدي الى انخفاض الاجور، وبالتالي خفض تكاليف الانتاج. كان العمال يشعرون بأن أصحاب المصانع لا ينظرون اليهم نظرة انسانية، وكان طبيعيا أن يزداد سخط العمال ، وتسوء العلاقات بينهم وبين أصحاب الاعمال الذين يستغلونهم سوأ استغلال ، كما كان من الطبيعي أن تكثر اصابات العمال وتتفشى ظاهرة الغياب بينهم .

شعر بعض المفكرين الاجتماعيين بهذا الوضع، فبدأوا يلفتون الانظار الى الجوانب الاجتماعية للمشكلات القائمة، ويطالبون بضرورة الاهتمام بالعنصر البشري الى جانب العنصر المادي في الانتاج .

٢- تقدم علم الاجتماع : في الوقت الذي أصبحت فيه الحاجة ماسة إلى دراسة الظواهر والمشكلات والتنظيمات الاجتماعية في الصناعة ، كان علم الاجتماع قد بلغ درجة من النمو تؤهله لدراسة تلك المسائل دراسة علمية صحيحة.

كان أغلب علماء الاجتماع يهتمون إما بدراسة المشكلات الاجتماعية الخاصة كمشكلات الاسرة والزواج وانحراف الاحداث والجريمة والعقاب والبغاء والانتحار، أو بدراسة المسائل والمشاكل ذات الصبغة التاريخية أو الفلسفية.

فعلماء الاجتماع الفرنسيين مثلا وهم الذين اليهم الفضل في إرساء دعائم العلم كانوا يعالجون الاشكال العامة للحياة كأشكال الدين والحكم، ونظم القرابة والزواج ، وانماط الحياة الاقتصادية في كافة المجتمعات ، مع اهتمام واضح بدراسة تلك النظم والاشكال الاجتماعية في المجتمعات البدائية على اساس أن تلك الدراسة هي المدخل الطبيعي لفهم النظم والاشكال الاكثر تعقيدا وتطورا

بداية هذا القرن بدأ العلماء الاوربيون والامريكيون بوجه خاص يبتعدون عن دراسة الموضوعات العريضة ذات الطابع الفلسفي، ويتجهون الى استخدام المنهج العلمي للوصول الى حقائق موضوعية تتعلق بجوانب محدودة من جوانب الحياة الاجتماعية، ولذا كان أمرا طبيعيا أن يتجه تفطيرهم الى دراسة الصناعة، وما يرتبط بها من ظواهر ، وما يترتب عليها من اثار ، باستخدام المبادئ والمفاهيم الاساسية لعلم الاجتماع.

كان علماء النفس الصناعي وعلماء الاقتصاد قد اتجهوا بدورهم إلى عالم الصناعة ، يدرسون ظواهره، ويعالجون مشكلاته، مما دعا البعض إلى التشكيك في قيمة الدور الذي كان يمكن لعلم الاجتماع أن يؤديه في هذا المجال ، غير أن من المعرف أن الظواهر والموضوعات التي يهتم بها علم الاجتماع غير تلك التي يهتم بها علم النفس والاقتصاد.

استطاع علم الاجتماع الصناعي أن يشق طريقه بنجاح خلال فترة قصيرة من الزمان ، وان يساهم مساهمة ايجابية مع غيره من العلوم الاجتماعية في دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية المصاحبة للتصنيع، أن وان يقدم كثيرا من الإضافات العلمية في هذا المجال.

ثانيا : مراحل تطور علم الاجتماع الصناعي

مرّ بها علم الاجتماع الصناعي بثلاث مراحل هي-:

١- مرحلة التفكير الفلسفي:

ترتب على عملية التصنيع وما ارتبط بها من مشكلات ومساوئ لحقت بالعاملين في الصناعة ان ظهر تياران فكريان متعارضان، احدهما يحاول تبرير الاوضاع الاجتماعية القائمة ويعمل على الإبقاء عليها، والاخر ذو نزعة نقدية إصلاحية يشن الحملات على حضارة العصر الصناعي، ويدعو إلى استبدال الاوضاع السيئة بأوضاع ا خرى جديدة تحقق العدالة بين الناس ، وتقضى على الظلم الذي تشكو منه الطبقة العاملة.

أما التيار الاول فكان يمثله المفكرون من اتباع مدرسة دارون الاجتماعية التي تقوم على اساس التنافس والصراع، وتنازع البقاء الانسب، وكان من رأى كثيرين من اتباع هذه المدرسة أن مبدأ عدم المساوة مبدأ طبيعي ليس للإنسان إلا ان يتمثل له، كما أن التفاوت في الارزاق مهما كان كبيرا أمرا ينبغي التسليم به، وفي ذلك يقول "هربرت سبنسر" أن لكل انسان الحق في المحافظة على حياته، لكم بما أنه كتب على اصلح الناس البقاء وعلى غيرهم الغناء ، فيجب أن يكون الناس احرارا كي ينافس بعضهم بعضا، وكي يثبتوا صلاحيتهم للبقاء.

ويقول " تشارلز دونييه" وهو من المفكرين الرأسماليين(أن العمال مسئولون عن بؤسهم، وهو بؤس نافع أي حال).

وكانت هذه الافكار الغربية تمثل مشكلة الانسان في ظل المجتمع الصناعي الرأسمالي ، أما التيار الاخر فكان يمثله المفكرون الاشتراكيون من أمثال "سيسموندى" ز" سان سيمون" الذين حملوا لواء الدعوة الى ضرورة القضاء على مساؤى النظام الصناعي الرأسمالي ، وضرورة الاهتمام بالعنصر البشري ورفع مستوى الرفاهية المادية عند الافراد ، وقد تعددت وجهات نظر هؤلاء المفكرين وإن كانت تلتقي عند ضرورة استبدال الاوضاع السائدة بأوضاع أخرى أحسن منها.

ويلاحظ أن غالبية الكتابات في هذه المرحلة قد ارتبطت بالكتابات الفلسفية والاقتصادية ، أنها كانت تعبر عن رغبات صحابها، وتستهدف بيان ما ينبغي أن يكون كثر مما تستهدف دراسة الوقائع الموجودة فعلا، ولذا يمكن اعتبارها دعوات إصلاحية كثر مما هي محاولات علمية، وعلى الرغم من ذلك فقد كان لها فضل كبير في توجيه الا نظار إلى ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية المصاحبة للتصنيع باستخدام الاسلوب العلمي.

٢- مرحلة الدراسة ذات الطابع العملى الإصلاحي:

اتجه المفكرون في هذه المرحلة إلى إجراء بعض البحوث الاجتماعية التي تستهدف دراسة المشكلات الصناعية في بيئات محدودة باستخدام المنهج العلمي بعد أن كانوا في المرحلة السابقة يعالجون المشكلات العامة ذات الطابع الفلسفي، غير أن أغلب البحوث التي جريت في تلك الفترة كانت تتجه وجهة عملية تطبيقية كثر مما كانت تستهدف الحصول على معارف جديدة يمكن الاستفادة بها في المجالين النظري والتطبيقي.

وقد قام" تشارلز بوث "بدراسة العلاقات المتبادلة بين الصناعة وبقية النظم والانساق الاجتماعية ، كما درس العلاقة القائمة بين الصناعة والمجتمع، فاختار الجانب الشرقي من مدينة لندن وأجرى فيه بحثه المشهور عن الحياة والعمل، واستعان بعدد كبير من الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين المشهورين ليساعدوه في جمع البيانات.

وقد نشر النتائج التي توصل إليها في ك تاب تحت عنوان حياة وأعمال الناس في لندن، وفى هذا الكتاب حاول بوث أن يصف تأثير الصناعة على الحياة الاجتماعية في لندن، وتطرق إلى دراسة كل الاعمال التي ارتبطت بالصناعة بطريق مباشر أو غير مباشر، سواء كانت هذه الاعمال تدور في المجال الصناعي أو الإداري أو غيرها من مجالات الحياة.

كما تطرق بالبحث إلى المنشآت العامة التي ارتبطت بقيام الصناعة، والتغييرات التي طرأت على العائلة في لندن وبخاصة عائلات العمال النازحين من المناطق القريبة ، والانحرافات الاجتماعية التي نشأت نتيجة لعمليات الهجرة، وتضارب القيم والمعايير وقد كان غرض بوث من هذه الدراسة أن يظهر لنصف سكان لندن المترفين، كيف يعيش النصف الاخر من العمال والفقراء والمعوزين.

وإلى جانب البحوث التي ذكرناها قام عدد أخر من الباحثين في أوروبا والولايات المتحدة بإجراء بحوث متفرقة في الميدان الصناعي ، غير أن تلك البحوث كان يغلب عليها التجاه العلمي كثر من التجاه النظري ، وقد مهدت تلك الفترة لظهور المرحلة الثالثة التي نشا فيها العلم نشانه العلمية.

٣- مرحلة الدراسة العلميّ ة المنظمة:

يعتبر المفكرون الاجتماعيون التجربة التي جراها" لتون مايو "عوانه من الباحثين الاجتماعيين في مصنع هاوثورن فيما بين عامي 1932 - 1927 م نقطة البدء الحقيقية لعلم الاجتماع الصناعي بمفهومه العلمي الحديث، فقد كشفت لأول مرة عن أهمية التنظيمات غير الرسمية في محيط العمل الصناعي، وأظهرت أن معدل الإنتاج لا تتأثر بالظروف الفيزيقية وحدها، أو بطول ساعات العمل اليومي الاسبوعي فقط، أو بمستويات الاجور فحسب، وإنما تتأثر بما يسود بيئة العمل من علاقات وروابط اجتماعية..

ويقع مصنع هاوثورن – الذي أجريت فيه التجربة -بضاحية غرب مدينة شيكاغو ويتبع شركة ويسترن إلك تريك التي كان تضم حوالي ثلاثين أ لف عامل وعاملة، يقومون بمختلف العمليات اللازمة لإنتاج أجهزة التليفونات.

وقد حاولت الشركة منذ إنشائها أن تساير التقدم الصناعي والاجتماعي وكانت في مقدمة الشركات المماثلة لها في رعاية العاملين حيث كان لها نظام للمعاش ونظام ، المكافآت ومجلس متخصص يتولى تدبير كل ما يضمن للعامل سلامته وراحته، وكانت الاجور التي تدفعها أعلى من الشركات المماثلة لها، ومع ذلك فقد ظهرت بوادر نزاع بين العمال والإدارة في فترة الرخاء التي أعقبت الحرب العالمية الاولى.

وفى عام 1924 م طلبت الشركة تعاون أكاديمية العلوم القومية التي بدأت بحوثها بمحاولة لاختبار الفرض القائل بأنه كلما تحسنت ظروف الإضاءة ارتفعت معدلات الإنتاج، وقد استمد الباحثون إطارهم النظري من النظرية الكلاسيكية في تفسير السلوك الإنساني في المصنع ، والتي تقول :أن الفرد يعتبر وحدة مستقلة يمكن دراستها على انفراد، وبأ ن كفايته الإنتاجية تتأثر بالظروف الفيزيقية للعمل كالإضاءة والتهوية ، وبالحوافز المادية كالأجور والمكافات التشجيعية.

ولاختبار صحة الفرض قام الباحثون باختيار مجموعتين أحدهما تجريبية والأخرى ضابطة، وعملوا على إدخال تحسينات في ظروف الإضاءة بالنسبة للمجموعة التجريبية وحدها، غير أنه لوحظ أن معدل الإنتاج قد ارتفع في المجموعتين، وقد فوجئ الباحثون بهذه النتيجة، حيث أن ظروف الإضاءة لم تتغير بالنسبة للمجموعة الثانية، فقاموا بتقليل الإضاءة بالنسبة للمجموعة التجريبية ، غير أنهم لاحظوا أن معدل الإنتاج قد ارتفع مرة ثانية ، فاستنتجوا أن هناك عامل خر غير الإضاءة أدى إلى ارتفاع الكفاية الإنتاجية.

توصل الباحثون إلى أن ارتفاع الكفاية الإنتاجية لا يرجع إلى الظروف الفيزيقية وحدها، أو إلى الحوافز المادية فحسب، وإنما يرجع إلى عوامل أخرى بشرية يضعوها في اعتبارهم منذ بداية التجربة، وهذه العوامل هي-:

١- نتيجة لصغر حجم جماعة العمل نشأت روابط وعلاقات اجتماعية أساسها التعاون والثقة المتبادلة والصداقة، وهذه الروابط والعلاقات الاجتماعية تكون من مجموعها مناخا اجتماعيا له من الاثر ما يفوق تأثير الظروف المادية في الإنتاج.

٢- يتكون التنظيم الاجتماعي للمصنع من مجموعة من المراكز والمكانات الاجتماعية التي تتفاوت فيما بينها من حيث درجة أهميتها، وقد ظهرت التجربة أن العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين مختلف الاشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية متباينة ينعكس أثرها على الإنتاج ، فقد تغيرت العلاقات القائمة بين الفتيات والمشرفين بحيث أصبحت تتسم بالحرية والصراحة ، كما الاتصال بين مستويات الإدارة وبين العاملات أصبح سهلا ميسرا.

٣- شعرت الفتيات بأنهن نخبة مختارة من بين زميلاتهن للتجربة ، وان المصنع يهتم بهن كأ فراد لا كمجرد تروس في ألة صناعية ضخمة ، وقد أدى ذلك إلى إحساس كل فتاة بالمسئولية الملقاة على عاتقها، فحرصت على أن تكون على مستوى المسئولية ، وعملت على رفع معدل الإنتاج.

وقد حاول بعض المفكرين أن يقللوا من قيمة النتائج التي أسفرت عنها التجربة قائلين :إنها لم تقدم إضافات جديدة إلى الميدان الاجتماعي ، فقد سبق لعلماء الاجتماع دراسة الجماعات الإنسانية، وما ينشا في داخلها من علاقات اجتماعية وأ مكنهم عن طريق تلك الدراسات الكشف عن طبيعة تلك العلاقات ، وتحديد أنواعها وتوضيح تأثيرها على سلوك الافراد ، وعلى تماسك الجماعات والمجتمعات.

هذا القول وإن كان يبدو صحيحا إلا انه فيه شيئا من المغالة، فعلماء الاجتماع وإن كانوا قد اتجهوا إلى دراسة كثير من الجماعات الإنسانية، واكنهم الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية في تلك الجماعات، إلا أنهم في ذلك الوقت لم يتوجهوا إلى دراسة المؤسسات الصناعية باستخدام الأساليب العلمية، ولم يحاولوا التعرف على أنواع العلاقات التي تسود بين أفرادها.

إن نظرتهم إلى الفرد في داخل المصنع كانت متأثرة بآراء علماء الاقتصاد التي كانت تقول : أن الحوافز المادية وحدها هي التي تدفع الافراد إلى العمل، وهي التي تحفزهم إلى بذل مجهود كبر للحصول على أجر اكبر غير أن النتائج التي أسفرت عنها التجربة غيرت تلك الا فكار التي تواضع عليها علماء الاقتصاد ومن حذا حذوهم من علماء الاجتماع، وأظهرت ان من الخطأ تفسير السلوك الإنساني في المصنع على أساس مادي بحت بدون نظر إلى الاعتبارات الاجتماعية.

إنّ المصنع ليس مجرد وحدة إنتاجية، وإنما يؤدى إلى جانب وظيفته الاقتصادية وظيفة أخرى اجتماعية على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، وهاتان الوظيفتان ل يمكن الفصل بينهما، فإذا اختل التنظيم البشري للمصنع ، فلن تنجح أية وسيلة أخرى في زيادة الكفاية الإنتاجية.

ولذا فليس من المغالاة في شيء أن تعتبر تلك التجربة بما أسفرت عنه من نتائج علمية نقطة البداية لعلم الاجتماع الصناعي بمفهومه العلمي الحديث.

قام" التون مايو "بتجارب أخرى بعد تجربته الأولى في مصنع هاوثورن وقد أكدت بحوثه التالية على أهمية الجماعات غير الرسمية في محيط العمل، وقد ظهرت نتائج البحث أيضا أنه على الرغم من أن لائحة المكافآت كانت تنص على نه كلما زاد الإنتاج ازداد أجر، فإن الإنتاج لم يكن يزيد أو يقل عن عدد معين من الوحدات كان يتفق عليها العمال فيما بينهم، ويستخلص" التون مايو "من هذا البحث نتيجتين هما-:

١- ليست هناك مجموعة من الناس يمكن أن يكون بين أعضائها اتصال لفترة من الزمن – مهما كان طولها -دون أن تتكون فيها مثل هذه التجمعات غير الرسمية ، ودون أن يظهر فيها قادة طبيعيون يصلون إلى القمة.

٢- من العبث العمل على تفكيك تلك الجماعات ، ومن الحكمة التوفيق بين اهتمامات الإدارة واهتمامات العمال ، بحيث تعمل مجموعة الجماعات غير الرسمية التي يتكون منها المصنع على تحقيق نفس الاهداف بدلا من أن يحدث بينهما تعارض وتناقض.

وفى بحث أخير اجراه في أحد مصانع الطائرات في جنوب كاليفورنيا في سنة 1944 عن مشكلات التغيب ودوران العمل، اتضح أن هناك أنواعا ثلاثة من الإدارات لم تكن تشكو من وجود مشكلات بها ، وهذه الانواع هي-:

١- جماعات العمل الصغيرة جدا، حيث يؤدى الاتصال القوى بين العمال إلى ذوبان الافراد جميعا في مجموعة واحدة تسهم في استقرارهم.
٢- الجماعات الكبيرة التي تخضع لنفوذ بعض الافراد ذوى الرغبة القوية في العمل، فقد كان هؤلاء يضربون المثل الاعلى لغيرهم بالانتظام في العمل، وبهذا يقل الدافع إلى التغيب.
٣- الجماعة التي تعمل الإدارة عامدة على إنماء روح الفريق بين أفرادها.

وقد عبر التون مايو عن اقتناعه بأن ظاهرة ارتفاع الإنتاجية وتحسن الروح المعنوية للعمال لشعورهم بالانتماء إلى جماعة واحدة ، ليست قاصرة على المصانع التي قام بدراستها ، بل هي ظاهرة عامة تسود المجتمعات كافة.

ومن هنا بدأت أفكاره تأخذ طابع الفلسفة الاجتماعية التي ترى أن المجتمع الصناعي الحديث أداة لإنتاج البؤس والتعاسة لأنه يقوم على نظام يجعل العمال متفرقين ، ل تربطهم أية رابطة، ولا يحفزهم سوى الدافع الاقتصادي والمصلحة الذاتية.

وضعت دراسات التون مايو الاساس لنظرية العلاقات الإنسانية في الصناعة ، وكان لها تأثير كبير في توجيه مجرى البحوث الميدانية والدراسات النظرية في المجال الصناعي ، وإن كان هناك جدل حول صحة التفسيرات التي ذهب إليها، إلا أن من المتفق عليه أنه كان أول دمن دخل هذا الميدان ، وقد أدت دراساته إلى سلسلة أخرى من البحوث والدراسات التي أجريت في أماكن اخرى ، وتحت إشراف باحثين اخرين ، إلا أنها كانت تستلهم أفكاره وتسير على النهج الذي سار علية في ك ثير من حيان.

اهتمت الجامعات الامريكية بتدريس مادتي الاجتماع الصناعي والعلاقات الصناعية ، ويقرر هذه الحقيقة" هوايت وميللر "بقولهما : إذا نظرنا إلى التطور الذي حدث بالنسبة لمادة علم الاجتماع الصناعي فإننا نجد أنه منذ عشرين عاما مضت، لم تكن تلك المادة تدرس في أغلب الجامعات ، أما الان فإن من النادر أن تخلو منها مناهج الدراسة في أي قسم من أقسام الاجتماع، كذلك الحال بالنسبة لمادة العلاقات الصناعية التي أصبحت تحظى باهتمام كبير من جانب المتخصصين في الاجتماع و الانثروبولوجيا وعلم النفس والسياسة والاقتصاد.